المحاضرة 12/13 الرواية العربية المعاصرة:

تحليل رواية "زقاق المدق" لنجيب محفوظ

من هو نجيب محفوظ؟:

نجيب محفوظ من الروائيّين العرب المَشهورين في العصر الحديث، وتحديداً منذ القرن العشرين للميلاد حتّى هذا اليوم، فقد ساهمت أعماله الروائيّة في عكس صورةٍ عن طبيعة الحياة الشعبيّة في الأحياء المصريّة القديمة، كما أنّ مُؤلّفات نجيب محفوظ نقلت صورةً عن واقع المُجتمع المصريّ، وخصوصاً في مراحلَ مُتعدّدة من القرن العشرين للميلاد، ونتيجةً لإنجازات محفوظ الأدبيّة حصل على العديد من الجوائز المحليّة والعالميّة، ومن أشهرها جائزة نوبل للأدب في عام 1988م.

حياته :

وُلِدَ نجيب محفوظ عبد العزيز الباشا في 11 كانون الأول (ديسمبر) عام 1911م في القاهرة، وعاش في أحد أحيائها القديمة والذي يُعرفُ باسم حي الجماليّة، وكان للمنطقة التي سكن فيها تأثيرٌ واضح على أعماله الروائيّة؛ لأنّه عاصر التّاريخ القديم لمصر، وعاش بين مباني ومعالمَ القاهرة التاريخيّة والأثريّة، وساهمت كلّ هذه العوامل في تشكيل شخصيّته الأدبيّة المشهورة. تُوفّي نجيب محفوظ في الجيزة في 30 آب (أغسطس) عام 2006م.

تعليمه:

درس نجيب محفوظ في المرحلة الابتدائيّة في مدرسة بين القصرين، ومن ثمّ انتقل إلى مدرسة فؤاد الأول الثانويّة ليُكمل دراسته، وبعد نجاحه في الدّراسة المدرسيّة قرّر دراسة الفلسفة، وحصل على شهادة جامعيّة في عام 1934م، وأثناء دراسته الجامعيّة عمل مُحرِّرا في إحدى المَجلّات، وصار ينشر المقالات الأدبيّة، وأصبح نجيب محفوظ معروفاً في الأوساط الأدبيّة منذ ذلك الوقت.

مسيرته الأدبيّة:

بدأ نجيب محفوظ مسيرته الأدبيّة في كتابة المقالات منذ الرّبع الأول من القرن العشرين للميلاد؛ إذ خصّص موضوعات أدبه ليروي الأحداث السياسيّة، والاجتماعيّة التي تدور في مصر، ممّا أدّى إلى ظهور عناصرَ تكرّرت في كلِّ رواياته، لتُشكّل رابطاً جذريًّا وأساسيًّا يربطُ بين جميع أعماله الأدبيّة، ومن أشهر هذه الرّوابط الحارة (الحيّ الشعبيّ) والتي تُعادل في صورتها وفقاً لتعبير "محفوظ" العالم بذاته، ونتج عن ذلك تأليفه للعديد من الأعمال الأدبيّة الروائيّة حول الحارات الشعبيّة، ومن أشهرها رواية أولاد حارتنا، كما تحوّلت العديد من روايات نجيب محفوظ إلى أعمالٍ سينمائيّة لقُربها من الواقع، ومن مُعاناة المُجتمع المصريّ، وأحداثها التي تَصِف حياة المُواطنين في مصر عن قُرب، والتي تتضمن أدقّ التّفاصيل الحياتيّة.

وجد العديد من الأعمال الأدبيّة المشهورة التي كتبها نجيب محفوظ، والآتي مجموعة منها: الثلاثيّة: بين القصرين، وقصر الشّوق، والسُكريّة. بداية ونهاية. ملحمة الحرافيش. اللّص والكلاب. ميرامار. ثرثرة فوق النّيل. الطّريق. القاهرة الجديدة.

رواية زقاق المدق:

رواية زقاق المدق رواية زقاق المدّق، واحدة من إبداعات الأديب المصري العالمي الراحل نجيب محفوظ، الحائز على جائزة نوبل للآداب، عام 1988، حيث يتخذ من حارات القاهرة أمكنة يروي من خلالها حياة، وأحداث رواياته الشعبية، القريبة من الناس البسطاء.

تصور الرواية، التي صدرت في العام 1947، أي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بعامين، في 286 صفحة، الحياة المصرية الاجتماعية إبان الاحتلال الانجليزي، في الأربعينيات، فترة الحرب العالمية الثانية، وتعالج تأثير هذه الحرب على المصريين، وفي عام 1966، تُرجمت إلى اللغة الإنجليزية، تدور أحداث الرواية في بيتين من بيوت زقاق المدق، وعدة دكاكين، ومقهى، وسكان طيبون بسطاء.

تلخيص رواية زقاق المدقّ

رواية زقاق المدقّ من أشهر الرّوايات الأدبيّة التي كتبها نجيب محفوظ، أمّا زقاق المدقّ فهو جزء من مكان موجود في إحدى مُحافظات مصر، استهلّ به محفوظ روايته لوصفِ ونقل صورة ذلك المكان كما هي؛ فنجده قد وصف الزّقاق بمنازله، وطبيعة النّاس الذين يعيشون فيه، ومَحلّاته التجاريّة كافَّة، إضافةً إلى الشّعور بالملل، ورتابة الحياة هناك كعادة حياة المصريّين في المناطق الشعبيّة المُشابهة.

بطلة رواية زقاق المدقّ هي حميدة، شابّة في ريعان شبابها، وهي العمود الرئيسيّ للرّواية، وترعرعت وكبرت على يد صاحبة أمّها التي تكفّلت بها، وأيقنت حميدة أنّها وقعت في الدّائرة المُظلمة من الحياة، فهذا الزّقاق الذي تعيش فيه، وهذه الدّناءة والقذارة التي تملأ المكان كانت من الأمور التي أشعلت في داخلها نقماً على الزّقاق وعلى حياتها؛ لأنّها ترى أنّ فتاةً مثلها مكانها في السّرايا وبيوت الهوانم، كما يجب أن تلبس أجمل الفساتين الرّاقية ذات الرّونق، والحُليّ ذات البريق، فترى أنّها تستحقّ حياةَ الرفاهيّة. وجدت حميدة مَخرجها من هذه الحياة التي كرهتها من خلال عباس الحلو، وهو من شباب زقاق المدقّ، فأغرَتهُ بجمالها، وسكنت هواه، واستغلّت عذوبتها ورقّتها لتنشل قلبه، فقد رأت في هذا الشّاب البسيط ملاذاً لها، ومَسكناً تلجأ إليه بقيّة عمرها، أمّا عباس فيعمل صاحباً لصالون حلاقة للرّجال، ويحصل منه على قوت يومه، والذي يُعينه على العيش ومصائب الدّهر، ويقع هذا الصّالون بجانب محل البسبوسة (الهريسة)، وصاحبه شخصيُّة أخرى في هذه الرّواية وهو (العم كامل) الكبير بالسنّ، وهو عجوز قد سَئِم الحياة، فيغمض عيونه أحياناً ليستغرق في نومه في وضح النّهار أثناء فترة عمله. لم يرَ عبّاس الحلو في صالون الحلاقة سبيلاً يكفيه ويُعيله هو وحميدة، فقرّر بعد قراءة فاتحتهما مع والدة حميدة وصاحب محل البسبوسة العم كامل أن يلتحق بمعسكر الإنجليز محاولاً البحث عن فرصة للعمل أفضل من عمله الحالي، لتُساعده على كسب المال الوفير فيَقدر على إدخال السّعادة إلى قلب حميدة. ضحّى عبّاس بالزّقاق وصالونه من أجل حميدة التي لم تقتنع بمحاولته هذه، ولم يكفِها ارتحاله وتحمّله للمشقّة لأجلها، فاستمرّت بالبحث عمّن هو جاهز مُسبَقاً كي يُدخلها العالم الذي كانت تحلم به، دون أن تضطر إلى انتظار عباس لوقت أطول، وبعد محاولاتها المُتعدّدة كان لها ما أرادت؛ فاقتنصت غريباً عن زقاق المدقّ كان ينظر إليها من القهوة المُقابلة لنافذتها، وأُسِرَ هذا الغريب بما رأى، فحثّه ذلك على الجلوس في نفس المِقعد أمام تلك النّافذة يوميًّا كي يرى تلك الفتاة الجميلة. تتوالى أحداث رواية زقاق المدقّ ويستمرّ سعي حميدة وراء النّقود، والملابس الفاخرة، والحياة الفارهة المليئة بالرفاهيّة، ويؤول بها الأمر إلى شخصيّة المدعوّ (فرج) ليلقي بها ما بين أقدام عساكر العدو، فنالت ما اشتهت من المال بعد أن باعت شرفها، وغيّرت اسمها إلى تيتي، وهجرت الحياة الكريمة القذرة بنظرها مقابل حياتها الجديدة والتي ندمت عليها ولكن بعد فوات الأوان.

شخصيات رواية زقاق المدق:

شخصية رضوان الحسيني:

يصف الكاتب رضوان الحسيني في الرواية بأنه ذو الطلعة البهية، وذو لحية صهباء يشعّ النور من غرة جبينه، وتقطر صفحته سماحة وبهاء وإيماناً. تعيش حياته الخيبة والألم، بعد فشله في الدراسة في الأزهر، وابتلاءه بفقده أولاده. ثم يتفرغ حبه للناس جميعا.

شخصية سنية العفيفي:

البيت الثاني تملكه سنية العفيفي يقارب عمرها الخمسين، تملك جسم جاف نحيل، تزوجت في شبابها من صاحب دكان روائح عطرية، عاشت حياة شاقة معه، لم يتوفقا في الزواج، فيُسيء معاملتها، ويسرق مالها، ثم يتركها أرملة منذ عشرة سنين.

بطلة الرواية:

أما بطلة الرواية ومحورها حميدة، فتاة بسيطة تتمتع بقدر من الجمال، يفتن بها رجال زقاق المدق، متمردة على واقعها، تحلم بالخروج من دائرة الزقاق، زقاق العدم كما وصفته، وحياة الفقر، وتتطلع إلى القصور المشيّدة من حولها، يتقدم لخطبتها جارها في الزقاق عباس الحلو الذي يعمل في محل حلاقة صغير، ثم يترك الزقاق، وينضم للعمل في معسكر الإنجليز، كي يجني منه المال، ويوفر لحميدة الحياة السعيدة، التي تتمناها، ولكن حميدة تتعلق برجل آخر، وتترك الزقاق، وتستخدم جسدها لجمع المال، والحصول على الثراء، فتنتهي بين أحضان الإنجليز في الكباريهات، فيعود عباس الحلو للزقاق، فيبحث عنها، وعندما يجدها بين أيدي الإنجليز، يحاول انتزاعها منهم، فيموت على يدهم .

شخصيات أخرى

المعلم كرشة، شخصية محيرة، تدهور حاله من فتى ثائر، وعضو فاعل في ثورة 1919، إلى بلطجي، وتاجر مخدرات، وشخصية الشيخ درويش، وزيطة، واليهودي.

أعمال مستوحاة من رواية زقاق المدق:

حولت هذه الرواية في عام 1963 إلى فيلم سينمائي، سيناريو وحوار سعد الدين وهبة، وإخراج حسن الإمام و قامت ببطولته الفنانة المصرية الكبيرة شادية، والفنانين صلاح قابيل، يوسف شعبان، حسن يوسف، حسين رياض،و عقيلة راتب، عبد الوارث عسر، عبد المنعم إبراهيم، توفيق الدقن، محمد رضا، ثريا حلمي، عدلي كاسب . وفي عام 1995، تم تحويل الرواية إلى فيلم آخر في المكسيك باسم El callejón de los Milagros أو Midaq Alley بطولة سلمى الحايك، مع تعديل الرواية لتلائم النمط السينمائي المكسيكي، ونال العديد من الجوائز.

تحليل الشخصيات:

نجيب محفوظ من الكتَّاب الذي يخلقون لأنفسهم عالم موازي كامل ، تتناثر قطعه في أنحاء كُتبه، رواية وراء أخري و مجموعة قصصية تكشف جزء من هذا العالم المُتكامل .

تستطيع كتابة رواية ذات شخصيات تحمل أبعادا لا بأس بها و فكرة مُتقنة بقليل من الجهد ، لكن من الصعب أن تبدع عالما موازيا كاملا من منظورك ، و نجيب محفوظ بالتأكيد صنع عالمه المحفوظي النظرة.

زُقاق المدق ،فهي رواية اجتماعية ذات بُعد فلسفي نفسي ، تحكي القصة عن زقاق المدق أحد أزقة الحسين ومجموعة من الشخصيات التي تربطهم الجيرة و القرابة و بعض الشخصيات المساعدة الخارجية .

في حارة فقيرة ،شخصيات مرسومة بحرفية ، قصص اجتماعية متشابكة في خيط رصين ، مع نظرة محفوظية بحتة، لمسات فلسفية ، لمسات كوميدية سوداء و شخصيات مجنونة ، و مواضيع كانت و لازلت تُعد تابوهات في الأدب المصري .

"حميدة هي المُجرمة الأصلية ، ألم تفر معه ؟ .. ألم تستسلم له .. أما هو فماذا نؤاخذه به ؟ .. فتاة أعجبته فغواها .. وجدها سهلة فنال منها وطره ، و أراد أن يستغلها فسرحها في الحانات ، هذا لعمري رجل حاذق ، و بودي لو أفعل مثله حتى تنجاب عني هذه الأزمة التي أكابدها . حميدة المُجرمة يا صاح".

ما يُميز شخصيات محفوظ ليس حرفية رسمها و الاهتمام بأدق تفاصيلها من الشكل الخارجي للجسم وحتى النفسية ، أفكارها و طباعاتها و التغيرات المحورية التي تمر بها ، ما يميز شخصياته هو تقليديتها ، كونها شخصيات حية ملموسة ، مصرية بحتة و تستطيع بسهولة أن تجدها حولك حتى مع مرور هذا الزمن علي الرواية.

شخصية حميدة :الشخصية الأكثر جدلًا و تناولًا في السينما و الأدب الاجتماعي ، الفتاة الفقيرة اليتيمة الطموحة ، الأنانية التي ترغب في حياة أكثر تحررًا و رفاهية ، و المُعالجة الواقعية التي انتهجها لمسار الشخصية ، إضافة إلى تركيبة حبها للتسلط و العنف و السيطرة و كره للزقاق لما يحمله من رمزية للفقر .

المعلم كرشة :الشخصية المصرية الشاذة جنسيًا ، ربما يكون نجيب محفوظ هو أول كاتب مصري في الأربعينيات يكتب عن تركيبة شخصية كتلك ، على الرغم من أن الشخصية لم تأخذ مساحة واسعة أو معالجة كبيرة ، إلا أنها شخصية واقعية حتى متغيراتها و انفعالاتها واقعية.

عباس الحلاق الساذج حسن النية ، حسين الناقم المتمرد على الزقاق و أبيه و نفسه ، الست سنية عفيفي العجوز صاحب البيت المكنزة للمال الباحثة عن الزواج بشاب ، سليم علون المهموم الحائر بين فحولته وشيخوخته ، حسينة الفرانة الخشنة و زوجها الضعيف جعدة .. و رضوان الحسيني صاحب الوجه المورد المُبتلي و الصابر علي ابتلاءه .

الشخصيتين الأكثر جدلًا في الرواية ، زيطة المتشرد صانع العاهات صاحب فلسفة إبليسية ، والدكتور بوشي طبيب الأسنان بالفطرة و الفهلوة دون دراسة أو علم ! .. نهايتهما والفكرة حول نبش القبور والتبريرات الواهية التي يلقنها كل منهما لنفسه .

حتى الشخصيات الثانوية كزوجة المعلم كرشة و الخاطبة التي تولت تربية حميدة بعد وفاة والدتها ، العم كمال صاحب محل البسبوسة ، الشيخ درويش مجنون اللغة الإنجليزية الفصحى و حكايته الطريفة الشائبة بالكوميديا السوداء للتعليم في مصر ، سوسو مدرب الرقص الشخصية المشهورة و المتواجدة في مصر ، وحتى إبراهيم فرج مدير مدرسة العُهر " القواد" على الرغم من قلة الاهتمام بفلسفته و أساس شخصيته على حساب تحليل تصرفاته وانفعالاته مع حميدة إلا أن ذلك أكد مادية شخصيته و كأننا اقتحمنا حياته مع حميدة في منتصف ممارسته لها ! .

"أقبح بكلمة حب إذا ندت عن فم مملول " .

الحكاية منذ منتصفها أو فيما قبله انحصرت في خط حميدة الدرامي و الأحداث المُتلاحقة لحياتها عُقب سفر عباس و ظهور إبراهيم فرج ، و على الرغم من عبقرية منولوجات حميدة الداخلية و نهايتها وبناء شخصيتها المميز ، لكن هذا بتر نهايات الشخصيات الأخرى التي حازت علي مساحة أكبر في بداية الرواية، و أصبحت نهاياتها جُملا عابرة كخبر لآخر أحداثها ، كشخصية "الست سنية عفيفي و حكاية زوجها " ، الخاطبة بعد اختفاء حميدة وحكاية

المعلم كرشة و الشاب ! على الرغم من تأكيد محفوظ على أن الزقاق يعود في مطلع كل نهار لسابق عهده و كأن ما حدث أمس لم يحدث .

تحليل المكان:

البيئة المكانية والزمنية لها دلالة قوية على علاقة الإنسان بالمكان والعلاقات بين الناس وبعضهم فيه، فكأنهم أسرة واحدة لها علاقاتها بالعالم الخارجي، متفاعلة معه مع حفاظها على الهوية والأصالة المميزة له والتي ظل محتفظاً بها على مدى الأزمان، وقد جاء اسم (زقاق المدق) مما يعني أن الكاتب قصد تحليل المكان بما يعج من قضايا اجتماعية وسياسية.

ولقد رسم الكاتب معالم هذا المكان بدقة متناهية، وهي بداية ترسخ أهمية المكان وتعمق أولوياته من خلال تسليط ضوء البداية عليه : "تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة..." . وقد بدأ محفوظ أحداث الرواية بوصف الزقاق وصفاً يطابق الواقع، أما أهل الزقاق فهم أناس بسطاء اختار منها محفوظ ما يجسد عمله الدرامي، لكن يبقى الزقاق هو البطل الحقيقي للرواية، وما حميدة إلا شخصية تجسد الحدث حيث تبدأ منها الأحداث في النمو والتصاعد وتنتهي بهما. تقول عنها الدكتورة (فوزية العشماوي) في كتابها "المرأة في أدب نجيب محفوظ" :"إن شخصية حميدة تمثل المرأة الوحيدة الخارجة عن تقاليد الزقاق وتشرد بعيداً عن قطاع كل النساء..." فحميدة من خلال هذه السطور هي التمرد والخروج للبحث عن حياة أفضل خارج نطاق هذا المكان، ومن خلال الزقاق والمقهي الصغير، يرتبط بصر محفوظ بالواقع، فهو يشبه ثقب الحائط الذي يراقب منه العالم كله، هو العين الفنية الحادة التي أبصرت ضياع القاهرة إبان الحرب العالمية الثانية.